المملكة العربية السعودية
وزارة الحج والأوقاف

التفسير البسيط للقرآن الكريم

بقلم
د. حسن محمد باجودة

الجزء السادس

منشورات الأمانة العامة لمسابقة القرآن الكريم الدولية

التفسير البسيط للقرآن الكريم

الجزء السادس

بقلم

د. حسن محمد باجودة

رئيس قسم الدراسات العليا العربية

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على أشرف المرسلين سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فهذا تفسيرٌ مبسّطٌ للجزء السّادس من القرآن الكريم ، قمت بعمله ، على غرار الأجزاء الخمسة الأُوَل ، التي طبعتها وزارة الحجّ والأوقاف مشكورة ، تلبيةً لرغبةٍ كريمةٍ للّجنة العليا المنظّمة للاحتفال السّنويّ العالميّ لتلاوة القرآن الكريم وتجويده وتفسيره ، برئاسة معالي وزير الحجّ والأوقاف الشّيخ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع . إنّ هذا الجزء السّادس هو ميدان التّفسير للمتسابقين في الحقل الأوّل ، الذي يشمل حفظ القرآن الكريم كاملاً مع التّفسير ، من بين حقول المسابقة الخمسة ، في الاحتفال السّنويّ التّاسع ، المنعقد في شهر جمادى الأولى سنة ١٤٠٧هـ . وكأنّ هذا التّفسير تتويجٌ للأعمال التي تمّت في مجال التّفسير ، في أثناء الاحتفال التّاسع . علماً بأنّ ميدان التّفسير للمتسابقين عام ١٤٠٨هـ هو الجزء السّابع من القرآن الكريم .

وأنتهز هذه الفرصة المباركة كي أوجّه خالص شكري وتقديري لوزارة الحجّ والأوقاف ، وعلى رأسها معالي الوزير ، على الثّقة التي منحتني إيّاها ، بأن أقوم بعمل هذا التّفسير ، الذي حرصت فيه ، كما حرصت في سابقيه ، على أمورٍ أهمّها ثلاثة :

١ ــ أن أبيّن مظاهر التّرابط بين الآيات الكريمات والموضوعات .

٢ ــ أن أشير إلى أن الدروس التي يمكن أن تستفاد .

٣ ــ أن أنسب الأقوال كلّها إلى مصادرها .

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتقبّله ، وأن يعفو عمّا بدر منّا من تقصير ، وألّا يحرمنا من الأجر إنّه سميعٌ مجيب .

﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربّنا ولا تَحْمِل علينا إصْراً كما حَمَلْتَه على الذين من قبلنا . ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنّا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ .

﴿ سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون . وسلامٌ على المرسلين . والحمد لله ربّ العالمين ﴾ .

وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

يوم الجمعة ١٤٠٨/١/١١هـ
الموافق ١٩٨٧/٩/٤م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه

د. حسن محمد باجودة
رئيس قسم الدراسات العليا العربية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

أولاً

تمام سورة النساء

۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن
سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ
أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ
حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ
يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾ يَسْـَٔلُكَ
أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟
مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ
ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ
ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾
وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ
بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ
رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ
بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ
ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ
أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ
وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ
وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ
وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ
مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ
تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا
﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ
وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا
﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا
لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ
ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧٠﴾

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ
عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ
ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ
وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ
ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ
وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ
إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا
يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ
فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ
لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ
إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ
وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾

بين يدي التفسير

من مظاهر تعنّت كافري أهل الكتاب
وعذابهم الأليم وأجر المؤمنين العظيم

الآيات ١٥٣-١٦٢

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ الله سبحانه وتعالى لا يحبّ الجهر بالسّوء من القول ، وتستثنى من ظُلِم فإنّ من حقه أن يخبر عن ظلم ظالمه ، وأن يدعو عليه من غير أن يعتدي عليه ، وإن صبر فهو خيرٌ له أمّا جزاء الظّالم فعلى الله سبحانه وتعالى الّذي لايخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء والذي تقرّر الآية الكريمة أنّه ــ جلّ وعلا ــ سميعٌ عليم ، هكذا في صيغة المبالغة ، فكلّ قولٍ يسمعه الله تعالى وكلّ عملٍ يعلمه وسيجازي على كلٍّ من القول والعمل . وفي مقابل نهي الآية الكريمة ضمناً عن قول السّوء ، تقرّر الآية الكريمة التّالية في خطابها المؤمنين أساساً بأنّهم إن يبدوا خيراً وينطقوا جميلاً من القول في حقّ من أحسن إليهم ، أو يعفوا عن الجهر بالسّوء من القول في حقّ من ظلمهم فإنّ الله سبحانه وتعالى كان عفوّاً قديراً ، غافراً للذّنب قابلاً للتّوب ، شديد العقاب ذا الطّوْل . ومن مظاهر الجهر بالسّوء من القول ما يجرى على ألسنة كلٍّ من اليهود والنّصارى الّذين يكفرون بالله ورسله في الحقيقة لأنّهم يؤمنون ببعض الرّسل الّذين أرسلهم الله تعالى إلى البشر ويكفرون ببعض ، وهم وراء ذلك يريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله بزعمهم أنّ أولئك الرّسل الّذين لايؤمنون بهم قد كذبوا على الله تعالى ، وهذا هو معنى التّفريق بين الله ورسله ، وتبعاً لإيمانهم ببعض الرّسل وكفرهم بالبعض الآخر هم يؤمنون ببعض الكتب ويكفرون بالبعض الآخر . وكانت الثّمرة النّكدة لهذا الكفر أن اتّخذ اليهود والنّصارى سبيلاً سلكوه ودعوا غيرهم إليه بين إيمانهم بالله حسب زعمهم وكفرهم ببعض الرّسل والكتب . وتصف الآية الكريمة التّالية القوم بأنّهم هم الكافرون حقّاً الّذين أعدّ الله تعالى لهم عذاباً مهينا . وفي مقابل العذاب المهين للكافرين تنّص الآية الكريمة التالية على الثّواب الجزيل للمؤمنين الّذين يؤمنون بالله ورسله ولايفرّقون بين أحدٍ منهم . إنّ هؤلاء المؤمنين هم أمّة محمّد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم .

لا يحبّ الله الجهر بالسّوء من القول إلاّ من ظُلِم
وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين

الآيات ١٤٨-١٥٢

من مظاهر تعنّت أهل الكتاب أن يسأل بنوُ إسرائيل المصطفى ﷺ أن ينزّل عليهم كتاباً من السّماء جملةً وليس مفرّقاً كما ينزل القرآن الكريم ، مكتوباً وليس مشافهةً ووحياً كما ينزل القرآن الكريم . ولا معنى لسؤال بني إسرائيل لأنّهم متعنّتون ، وتعزّى الآية الكريمة المصطفى ﷺ ضمناً بتقريرها سؤال بني إسرائيل موسى عليه السّلام أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله عياناً فأخذتهم الصّاعقة ، ووسعتهم رحمة الله تعالى فبعثوا أحياء ، ثمّ اتّخذوا العجل إلهاً يعبدونه من دون الله من بعد ما جاءتهم البيّنات فعفى الله تعالى عن ذلك وآتى موسى سلطاناً بيّناً وآيات واضحات لعلّ القوم يعودون إلى جادّة الصّواب . إنّ الذّراري المعاصرين للمصطفى ﷺ صورةٌ لآبائهم على عهد موسى عليه السّلام فلعلّ المصطفى ﷺ ألاّ يحزن ولايأسى . ومن مظاهر تعنّت بني إسرائيل ما نصّت عليه الآية الكريمة التّالية فقد رفع الله سبحانه وتعالى فوقهم جبل الطّور في شبه جزيرة سيناء لمّا امتنعوا عن العمل بما في التوراة . وحينما أُمروا أن يدخلوا باب حطّة من بيت المقدس منحنين ركوعاً شاكرين لله تعالى متواضعين قائلين مسألتنا حطّة ، أي أن تحطّ عنّا ذنوبنا بفضل الله تعالى ومنّه ، دخلوا يزحفون على أستاهم وهم يقولون : حنطةٌ في شعرة ، وحينما أمر سكّان قرية أيلة على بحر القُلْزم (البحر الأحمر) ألاّ يصطادوا الحيتان يوم السّبت ولايعتدوا على أحكام الله تعالى احتالوا لحبسها يوم السّبت واصطادوها بعد ذلك . وقياساً على تعنّتهم ومخالفتهم أوامر الله تعالى في كلّ ما نبّهت عليه الآية الكريمة نستطيع أن نفهم الجزئية الكريمة الأخيرة : ﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ بمعنى أنّ القوم نقضوا العهد المؤكّد الشّديد ، وهذا النّقض المفهوم ضمناً نصّت عليه الآية الكريمة التالية الّتي معناها ـــ والله تعالى أعلم ـــ فبنقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حقّ وقولهم قلوبنا غُلْفٌ أي في أغطية لعنّاهم وغضبنا عليهم وطردناهم من رحمتنا .. وبالنّظر إلى مظاهر التّعنّت هذه وما سبقها

ولحق بها نستطيع أن نتبين توزّع هذه المظاهر على القوم خلال العصور ممّا هو دليلٌ على تأصل الالتواء فيهم والاعوجاج في سلوكهم . وحينما انصرف القوم عن دعوة الحق صرف الله قلوبهم فلا تصغى لموعظة ولايستقرّ بها خير ولا يؤمنون إلاّ قليلاً منهم كعبدالله بن سلام وأصحابه . على أنّ صفة الكفر هي الصّفة المشتركة بين القوم . أمّا الكفر في الآية : ﴿ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ فالمراد به الكفر بعيسى عليه السّلام فاليهود يكفرون بعيسى وبمحمّد عليهما الصّلاة والسّلام . والمراد بالبهتان العظيم اتّهام البتول العفيفة الطّاهرة الذّيل بجريمة الزّنا عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم الدّين . ويلحق بذلك قولهم في الأسلوب الّذي يشتمّ منه رائحة السّخرية والاستهزاء : ﴿ إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ إنّهم قد قالوا عن البتول ما قالوا وهم لايؤمنون بعيسى عليه السّلام . وتنفي الآية الكريمة على الفور ادّعاءهم قتله وصلبه ، وتقرّر أنّه شبّه لهم لأنّ الّذي قتلوه أحد الحواريّين الّذي ألقي عليه شبه عيسى عليه السّلام . وإنّما اختلفوا فيه لأنّ جسده ليس جسد عيسى عليه السلام . إنّ القوم ليس لديهم شيءٌ من العلم بل اتّباع الظّنّ ، وما قتلوا عيسى عليه السّلام يقيناً بل كانوا شاكّين في قتله مختلفين في حقيقة شخصه . وتثبت الآية الكريمة التّالية أنّ الله سبحانه وتعالى العزيز الحكيم قد رفع عيسى عليه السلام إليه ، وتبيّن الآية الكريمة التّالية أنّه ما من أهل الكتاب أحدٌ إلاّ ليؤمننّ بعيسى عليه السّلام قبل موته عليه السلام لمّا ينزل عليه السّلام قرب السّاعة كما وردت بذلك الأحاديث الصّحاح المتواترة ويوم القيامة يكون عيسى عليه السّلام شهيداً بأنّه بلّغ رسالة ربّه وبمن آمن وبمن كفر وبأعمالهم الّتي شاهدها قبل رفعه وبعد نزوله ويفهم من الأحاديث أنّه عليه السّلام ينزل بالشّام بل بدمشق عند المنارة الشّرقيّة وأنّ ذلك يكون عند إقامة صلاة الصّبح ، وأنه رجلٌ مربوع إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان مصبوغان بالطّين الأحمر كأنّ رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيدقّ الصّليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية بمعنى أنّه لايقبلها ويدعو النّاس إلى الإسلام فتصير الملل كلّها واحدةً وهي ملّة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام . وتقرّر الآية الكريمة التّالية أنّه بظلمٍ من الّذين هادوا حرّم الله سبحانه وتعالى عليهم طيّبات أحلّت لهم ، وبصدّهم عن سبيل الله تعالى كثيرا ، كما تقرّر الآية الكريمة التّالية أنّ تحريم الطّيبات عليهم كان بسبب أخذهم الرّبا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال النّاس بالباطل كالرّشا . وقد أعدّ الله سبحانه وتعالى للكافرين منهم عذاباً أليما .

وتستثنى الآية الكريمة التّالية من العذاب الأليم فريقين الرّاسخين في العلم منهم والمؤمنين ، وهذان الفريقان تحوّلا مسلمين لله ربّ العالمين متّبعين للرّسول النّبيّ الأمّيّ فهم يؤمنون بالقرآن الكريم وبما أنزل الله سبحانه وتعالى قبله من كتاب ، ويقيمون الصّلاة ويؤتون الزّكاة ويؤمنون بالله تعالى وباليوم الاخر . إنّ أولئك سيؤتيهم الله تعلى أجراً عظيماً . ودليلاً على أهميّة الصّلاة تجيء منصوبةً على الاختصاص والمدح : « والمقيمين الصّلاة » ودليلاً على أهميّة الزّكاة تجيء مقرونة بالصّلاة في واحدٍ من بين ما يزيد على الثّمانين موضعاً في القرآن الكريم .

أوحينا إليك بالنّبوّة وأنزلنا إليك القرآن وعقاب الكافرين

الآيات ١٦٣ - ١٧٠

تقرّر الآيتان الكريمتان الأوليان أنّ الله سبحانه وتعالى قد أوحى إلى رسلٍ قد قصّهم على النّبيّ ﷺ . وإلى رسل لم يقصّهم عليه ﷺ والّذي يلفت الانتباه أنّ الأسماء المذكورة في الآيتين الكريمتين قد اشتملت على أولى العزم من الرّسل الخمسة وهم نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد ﷺ . أجمعين ، واللّطيف في الأمر أنّ السّياق يبدأ بآخرهم وأشرفهم محمّد بن عبدالله ﷺ : ﴿ إنّا أوحينا إليك ﴾ وفي الآيتين الكريمتين إشارة إلى الإيحاء بالنّبوّة ، وإلى الإيحاء بالزّبور وبالقرآن ، وإلى تكليم الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام تكليماً من وراء حجاب . والآية الكريمة التّالية تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى أرسل الرسل مبشّرين من أطاعوا الله تعالى وصدّقوا رسله بالجنّة والمغفرة بإذنه ، ومنذرين من عصوا الله تعالى وكذّبوا رسله بالنّار والعذاب الأليم ، كما تبيّن الحكمة من إرسال الرّسل وذلك لئلا يكون للناس على الله حجّةٌ بعد الرّسل وكان الله عزيزاً في ملكه حكيماً في صنعه . والآية الكريمة التّالية التي نزلت ردّاً على اليهود منكري نبوّة محمّد ﷺ تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى يشهد بما أنزل إلى عبده محمّد صلّى الله عليه وسلّم من قرآنٍ مجيدٍ خصّ به على علمٍ هذا الرّسول الكريم ، والملائكة يشهدون بذلك . وكفى بالله تعالى شهيداً مغنياً عن أيّ شهيد .

والآية الكريمة التّالية تقرّر أنّ الّذين كفروا وصدّوا بعد ذلك الآخرين عن سبيل الله كاليهود وككفّار مكّة قد ضلّوا ضلالاً بعيداً . والآيتان الكريمتان التّاليتان تقرّران أنّ الّذين كفروا وظلموا أنفسهم وظلموا الّذين أضلّوهم وظلموا دين الإسلام ونبيه ﷺ لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً ، إلاّ طريق جهنم خالدين فيها أبدا ، وما أيسر ذلك على الله تعالى وأهونه .

وبقصد إرشاد الناس إلى سبيل الله تعالى وتحذيرهم من سبل الغواية تخاطب الآية الكريمة التّالية كلّ النّاس بأنّهم قد جاءهم الرّسول محمّد ﷺ بالحقّ من ربّهم فعليهم أن يؤمنوا فإنّ في ذلك الخير لهم ، وإن يكفروا فإنّ لله ما في السّماوات والأرض ملكاً وخلقاً وعبيداً وكان الله عليماً حكيما .

يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ويا أيّها النّاس آمنوا بالله

الآيات ١٧١ - ١٧٥

من الّذين حادوا عن الصّراط المستقيم النّصارى وها هي ذي الآية الكريمة الأولى تنهاهم عن الغلوّ في عيسى عليه السّلام وعن قول غير الحقّ على الله تعالى ، وتبيّن وجه الحقّ في عيسى عليه السلام فهو ابن مريم أي عبدٌ لله تعالى وهو رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم بأن قال له « كُنْ » فكان عيسى عليه السّلام وهو روحٌ منه جلّ وعلا فعلى النّصارى أن يؤمنوا بالله تعالى وحده لاشريك له رباً وبكلّ الرّسل وأن يكفّوا عن القول هم ثلاثة ، الله وعيسى وأمّه ، إنّهم إن ينتهوا يكن خيراً لهم . إنّ الله سبحانه وتعالى واحدٌ أحدٌ فردٌ صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد وتنزّه عن الصّاحبة والولد وله ما في السّماوات وما في الأرض وكفى بالله تعالى وكيلاً وحسب ما في السّماوات وما في الأرض بالله قيّماً ومدبّراً ورازقاً من الحاجة معه إلى غيره . والآية الكريمة التّالية تقرّر أنّ المسيح عليه السّلام لن يستنكف ولن يستكبر من أن يكون عبداً لله تعالى ، وفي هذا تبكيتٌ للغالين في عيسى عليه السّلام ، ولن يستكبر الملائكة المقرّبون كذلك ، وفي هذا تبكيتٌ للعرب الغالين في

الملائكة الزّاعمين أنّهم بنات الله . وتقرّر الآية الكريمة أن من يستنكف عن عبادته جلّ وعلا ويستكبر فسيحشرهم إليه يوم القيامة جميعاً من أجل الحساب فالثّواب أو العقاب .. والآية الكريمة تتحدث عن ثواب المؤمنين الّذين يوفيهم الله تعالى أجورهم ويزيدهم من فضله ، وعن عذاب المستنكفين المستكبرين الأليم والّذين لن يجدوا لهم من دون الله ولياً ولا نصيرا .

وبعد الحديث عن النّصارى الّذين يمثّلون أهل الكتاب ، وعن مشركي العرب الّذين يمثّلون المشركين عموماً ، وهذان الفريقان يمثّلان النّاس آنذاك ، تخاطب الآية الكريمة النّاس كلّ الناس وتدعوهم إلى اتّباع الرّسول النّبيّ الأميّ والقرآن الكريم النور المبين الّذي أنزله الله تعالى عليه . والآية الكريمة تشير إلى ثواب المؤمنين وتسكت عن عذاب الكافرين اكتفاءً بحديث الآية الكريمة قبل السّابقة عن ثواب المؤمنين وعذاب المستكبرين . وتختم سورة النّساء الكريمة بآية الكلالة .

آية الكلالة "١٧٦"

آية الكلالة آخر آيةٍ نزلت في الفرائض ، وهي تجيب الّذين استفتوا النّبيّ ﷺ فيها ، والمعروف أنّ أسئلة الصّحابة المصطفى ﷺ قليلة ومنها السّؤال عن الكلالة ، والمعروف أنّ هذه الآية الكريمة نزلت في جابر بن عبدالله وكان له تسع أخوات ولم يكن له والدٌ ولا ولد . ومعنى الآية الكريمة : يستفتونك يا محمّد في الكلالة ، أي في من مات وليس له والدٌ ولا ولد قل الله يفتيكم فيها . إن امرؤٌ هلك وإن إنسانٌ من النّاس مات ليس له ولدٌ ولا والد وله أختٌ لأبيه وأمّه ، أو لأبيه ، فلها نصف ما ترك ، وهو يرثها إن لم يكن لها ولد فينال كامل الميراث . فإن كانتا أختين أو أكثر فلهنّ الثّلثان ممّا ترك . وإن كانوا إخوةً رجالاً ونساءً وكان الورثة عصبةً من البنين وبني البنين والإخوة إذا اجتمع ذكورهم وإناثهم أعطي الذكر مثل حظّ الأنثيين . وتقرّر الآية الكريمة أنّ الله يبيّن لنا لئلا نضلّ ونخطىء في الحكم والله بكلّ شيءٍ عليم .

التفسير

﴿ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ﴾

وعذاب الكافرين وثواب المؤمنين

الآيات ١٤٨-١٥٢

﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ ﴾

لا يحب الله الجهر بالسّوء من القول إلّا من ظَلِم : عن ابن عبّاس : لا يحبّ الله أن يدعو أحدٌ على أحدٍ إلّا أن يكون مظلوماً فإنّه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه ، وذلك قوله : إلّا من ظُلِم ، وإن صبر فهو خيرٌ له[1] .

تبيّن الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة لا يحبّ الجهر بالسّوء من القول بل يعاقب عليه ، وقد قال عزّ من قائل[2] : ﴿ يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾ وتستثني الآية الكريمة من ظُلِم ، فإنّ من حقّه أن يخبر عن ظلم ظالمه ، وأن يدعو عليه . وفي روايةٍ عن الحسن البصريّ قال : قد رُخّص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه[3] وقد قال تعالى[4] : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خيرٌ للصّابرين ﴾ إنّ الصّبر خيرٌ للمظلوم بنصّ القرآن الكريم . إنّ الإسلام الذي أعطى المظلوم الحقّ في أن ينتصر لنفسه ممّن ظلمه أرشده إلى ما هو أفضل من ذلك ألا وهو الصبر والغفران ، خاصّةً في حقّ من هو قادرٌ على الانتصار لنفسه . لقد بيّنت هذه المعاني السّامية الآيات الكريمات التي تبيّن صفات المؤمنين في سورة الشّورى ومنها قوله تعالى[5] : ﴿ والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون . وجزاءُ سيّئةٍ سيّئةٌ مثلها ، فمن عفا وأصلح فأجره على الله ، إنّه لا يحبّ الظّالمين . ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل . إنّما السّبيل على الذين يظلمون النّاس ويبغون في الأرض بغير الحقّ ، أولئك لهم عذابٌ أليم ولَمَنْ صَبَرَ وغَفَرَ إنّ ذلك لمِنْ عَزْم الأمور ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٢/٦ وتفسير ابن كثير ٥٧٠/١ .

(٢) سورة الأحزاب ٧٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ٥٧١/١ .

(٤) سورة النحل ١٢٦ .

(٥) سورة الشّورى ٣٩ ــ ٤٣ .

وتختم الآية الكريمة بالقول : ﴿ وكان الله سميعاً عليماً ﴾ ومن البيّن أنّ القول : « سميعاً » يتمشى مع القول الذي يُسْمع ، فالله سبحانه وتعالى سميع ، هكذا في صيغة المبالغة ، ﴿ ما يكون من نجوى ثلاثةٍ إلّا هو رابعهم ولا خمسةٍ إلّا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلّا هو معهم أينما كانوا ثمّ ينبّئهم بما عملوا يوم القيامة . إنّ الله بكلّ شيءٍ عليم ﴾[1] والله سبحانه وتعالى عليم ، هكذا في صيغة المبالغة أيضاً . والله سبحانه وتعالى عليم بما يقال فيسمع ، وبما لا يقال فيعلم . إنّ الله سبحانه وتعالى : ﴿ يعلم السّرّ وأخفى ﴾[2] فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء .

إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾

نهت الآية الكريمة السّابقة ضمناً عن الجهر بالسّوء من القول ابتداءً واعتداءً ، واستثنت من ظُلم فأذنت له في أن يخبر بظلم ظالمه ويدعو عليه ، وهذه الآية الكريمة التّالية تقرّر في هيئة مخاطبة النّاس بأنّكم إن تبدوا خيراً وتنطقوا جميلاً من القول في حقّ من أحسن إليكم أو تخفوا ذلك القول ، أو تعفوا عن الجهر بالسّوء من القول في حقّ من ظلمكم وبخاصّةٍ حينما تكونون قادرين على الانتصار لأنفسكم ممّن ظلمكم فإنّ الله سبحانه وتعالى كان ولا زال ولن يزال عفوّاً يحبّ العفو فاعفوا ، قديراً ، هكذا في صيغة المبالغة ، على أخذ كلّ ظالمٍ أخذاً أليماً شديداً . وفي الحثّ على العفو ابتغاء ثواب الله تعالى وعفوه جاء في سورة النّور[3] قوله تعالى : ﴿ ولا يأْتَلِ أولو الفضل منكم والسّعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا . ألا تحبّون أن يغفر الله لكم . والله غفورٌ رحيم ﴾ وقد نزلت الآية الكريمة في أبي بكر وكان حلف ألّا ينفق على مسطح وهو ابن خالته مسكينٌ مهاجر بدريّ لمّا خاض في الإفك بعد أن كان ينفق عليه وفي ناسٍ من الصّحابة أقسموا ألّا يتصدّقوا على من تكلّم بشيءٍ من الإفك ، وقد قال أبو بكر : بلى أنا

---

(١) سورة المجادلة ٧ .

(٢) سورة طه ٧ .

(٣) الآية ٢٢ .

أحبّ أن يغفر الله لي ورجع إلى مسطح ما كان ينفقه عليه[1] وفي أخذ الله تعالى القرى الظّالمة جاء قوله تعالى[2] : ﴿ وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إنّ أخذه أليمٌ شديد ﴾ ويندرج سائر أعمال البرّ تحت لفظ الخير .

وفي الحديث الصّحيح : ما نقص مالٌ من صدقة ، ولا زاد الله عبداً يعفو إلّا عزّاً ، ومن تواضع لله رفعه[3]

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ
وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ
أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ
حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾

ويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله : بأن يكذّبوا رسل الله الذين أرسلهم إلى خلقه بوحيه ويزعمون أنّهم افتروا على ربّهم ، وذلك هو معنى إرادتهم التّفريق بين الله ورسله بنحلتهم إيّاهم الكذب والفرية على الله وادّعائهم عليهم الأباطيل[4] .

الآيتان الكريمتان السّابقتان تحدّثتا عن الجهر بالسّوء من القول الذي لا يحبّه الله تعالى وعن العفو عن السّوء الذي يحبّه الله تعالى سواءٌ كان السّوء قولاً أو عملاً . والآيتان الكريمتان اللتان نحن بصدهما ذواتا علاقةٍ بالجهر بالسّوء من القول على لسان اليهود والنّصارى . إنّ اليهود والنّصارى الذين يزعمون أنّهم يؤمنون به جلّ وعلا يكفرون به تعالى في الحقيقة لأنّهم يؤمنون ببعض الرّسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى البشر ويكفرون ببعض ، وإنّ من سمات المؤمنين الإيمان بكلّ الرّسول وألّا يكن ثمّة تفريقٌ بين أحدٍ من رسله جلّ

---

(١) الجلالين .

(٢) سورة هود ١٠٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ١/٥٧١ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٦/٥ .

وعلا . وتبعاً لإيمان اليهود والنّصارى ببعض الرّسل وكفرهم ببعضهم الآخر ، هم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض . إنّ اليهود مثلاً يؤمنون بموسى عليه السّلام وبالتّوراة التي أنزلها الله تعالى عليه ويكفرون بعيسى وبمحمّدٍ عليهما الصّلاة والسّلام وبالإنجيل الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام وبالقرآن الذي أنزله الله تعالى على محمّد عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين . وإنّ النّصارى يكفرون بمحمد ﷺ وبالقرآن الكريم . وما معنى كفر اليهود عليهم لعائن الله بعيسى وبمحمّدٍ عليهما الصّلاة والسّلام ؟ المعنى اتهامهم لهما ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذباً ﴾ اتهامهم لهما بالكذب على الله تعالى ، وإنّ الشّيء ذاته يقال عن النّصارى ، وفي ذلك كفرٌ بالله تعالى الذي أرسل كلّ الرّسل ، وكفرٌ بالرّسل جميعاً لأنّ الكفر ببعضهم كفرٌ بهم جميعاً ، وإرادةٌ للتّفريق بين الله ورسله « بنحلتهم إيّاهم الكذب والفرية على الله وادّعائهم عليهم الأباطيل »[1] وهذا الكفر بالله ورسله والتّفريق بين الله ورسله يعبّرون عنه بالقول : ﴿نؤمن ببعضٍ ونكفر ببعض﴾ وكانت الثمرة النّكدة لهذا الكفر أن اتّخذ اليهود والنّصارى بين الإيمان والكفر سبيلاً سلكوه ودعوا غيرهم إليه .

والآية الكريمة الثّانية تقرّر أنّ أولئك الذين اتّخذوا بين الإيمان والكفر سبيلاً هم الكافرون حقّاً ، كما تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى قد أعدّ للكافرين عذاباً مهيناً ، في الدّنيا بالذّلّ والهوان ، وفي الآخرة بدخول جهنّم والاصطلاء بنارها في سواء الجحيم والعياذ بالله .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا

أولئك سوف يؤتيهم أجورهم : يعني ثواب أعمالهم[2] وجزاءهم وثوابهم على تصديقهم الرّسل في توحيد الله وشرائع دينه وما جاءت به من عند الله[3] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦/٥ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير الطّبريّ ٦/٦ .

تحدّثت الآيتان الكريمتان السّابقتان على الذين يكفرون بالله ورسله ويفرّقون بين الله ورسله والعذاب المهين الذي ينتظرهم . وهذه الآية الكريمة تتحدّث عن الفريق المقابل وذلك على عادة القرآن الكريم في الحديث عن الشّيء وضدّه المعنى وخلافه . والآية الكريمة تقرّر ضمناً أنّ الذين آمنوا بالله ورسله قد شهدوا أنّه لا إله إلّا الله ، وآمنوا بكلّ رسل الله تعالى وفي مقدّمتهم خاتمهم وأشرفهم محمّد بن عبد الله ﷺ . ونستطيع أن نفهم بداهةً أنّ المقصودين بالآية الكريمة هم أمّة محمّد بن عبد الله ﷺ لأنّهم وحدهم الذين يؤمنون بالله تعالى كما ينبغي أن يكون عليه الإيمان وبكلّ رسل الله تعالى . وبناءً على ذلك هم كما بيّنت الآية : ﴿ ولم يفرّقوا بين أحدٍ منهم ﴾ بمعنى أنّهم لا يقولون نؤمن ببعض الرّسل ونكفر ببعض ، ونؤمن ببعض الكتب ونكفر ببعض . إنّهم يؤمنون بكلّ رسل الله تعالى ولا يفرّقون بين أحدٍ منهم وبكلّ كتب الله تعالى التي أوحى بها إلى رسله وفي مقدّمتها آخرها وأشرفها الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد ، القرآن الكريم المصدّق للكتب السّابقة عليه والمهيمن عليها ، وقد جاء في خواتيم سورة البقرة[1] قوله تعالى : ﴿ آمن الرّسول بما أنزل إليه من ربّه والمؤمنون . كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرّق بين أحدٍ من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير ﴾ .

وفي مقابل عذاب الكافرين المهين في القول : ﴿ وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً ﴾ يجيء في ثواب المؤمنين الجزيل القول : ﴿ أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ﴾ ومع أنّ اسم الإشارة « أولئك » الذي استعمل في حقّ الكافرين دليلاً على طرد الله تعالى لهم وإبعادهم من رحمته جلّ وعلا ، هو الذي يستعمل في حقّ المؤمنين فإنّه يدلّ هنا على رفيع منزلة أولئك المؤمنين ثمرة طاعتهم لله تعالى ورضاه عنهم جلّ وعلا . ونستطيع أن نفهم من استعمال « سوف » التي تدلّ على المستقبل البعيد أنّ الثّواب الجزيل الحقيقيّ هو في يوم القيامة إضافةً إلى الثّواب في الدّنيا المتمثّل في الحياة الطيّبة التي يحييها الله تعالى عباده المؤمنين . ومع أنّ لفظة أجور المستعملة في الدّلالة على ثواب أعمال المؤمنين لا ينصّ معها على كبير الأجور ، فإنّ ذلك مفهومٌ ضمناً ، لأنّ الحديث عن عباد الله تعالى ، ولأنّ الحديث من قبل عن الكافرين قد نصّ على العذاب المهين ، ويرتبط بالإهانة ضخامة العذاب . إنّ العذاب

---

(١) الآية ٢٨٥ .

المهين في حقّ الكافرين ينبّه إلى ثواب المؤمنين الجزيل .

وفي تذييل الآية الكريمة : ﴿ وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ تقريرٌ لفضل الله تعالى العميم على المؤمنين فبالإضافة إلى جزيل الثّواب على الصّالحات فإنّ ذنبهم بفضل الله تعالى مغفور ، ويتوّج كلّ ذلك برحمة الله تعالى التي تشملهم .

من مظاهر تعنّت كافري أهل الكتاب
وعذابهم الأليم وأجر المؤمنين العظيم

الآيات ١٥٣-١٦٢

﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُّبِينًا (١٥٣) ﴾

يسألك أهل الكتاب : يعني بذلك أهل التّوراة من اليهود[١] .

أن تنزّل عليهم كتاباً من السّماء : كما نزلت التّوراة على موسى مكتوبة[٢] . عن محمّد ابن كعب القرظيّ قال : جاء أناسٌ من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إنّ موسى جاء بالألواح من عند الله فأتنا بالألواح من عند الله حتّى نصدّقك فأنزل الله : ﴿ يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السّماء ﴾ إلى قوله : ﴿ وقولهم على مريم بهتاناً عظيما ﴾[٣] وقيل : سألوه نزول الكتاب جملةً لا مفرّقاً[٤] .

فقد سألوا موسى أكبر من ذلك : توبيخٌ من الله جلّ ثناؤه وتقريعٌ منه لهم[٥] .

فقالوا أرنا الله جهرة : أي عياناً نعاينه وننظر إليه[٦] .

ثم اتّخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البيّنات : يقول الله تعالى لنبيّه ﷺ : يا محمّد لا يعظمنّ عليك مسألتهم ذلك فإنّهم من جهلهم بالله وجراءتهم عليه واغترارهم بحلمه لو أنزلت عليهم الكتاب الذي سألوك أن تنزله عليهم لخالفوا أمر الله كما خالفوه بعد إحياء الله أوائلهم من صعقتهم فعبدوا العجل واتّخذوه إلهاً[٧] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦/٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٧٢/١ وتفسير الطّبريّ ٦/٦ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٦/٦ .

(٤) الجلالين .

(٥) تفسير الطّبريّ ٧/٦ .

(٦) تفسير الطّبريّ ٧/٦ .

(٧) تفسير الطّبريّ ٧/٦ .

من بعد ما جاءتهم البيّنات : أي من بعد ما رأوا من الآيات الباهرة والأدلّة القاهرة على يد موسى عليه السّلام في بلاد مصر[1] .

فعفونا عن ذلك : لم نستأصلهم[2] .

وآتينا موسى سلطاناً مبيناً : وآتينا موسى حجّةً تبين عن صدقه وحقّيّة نبوّته . وتلك الحجّة هي الآيات البيّنات التي آتاه الله إيّاها[3] .

تقرّر الآية الكريمة أنّ أهل الكتاب ، والمراد بهم اليهود الذين كانوا آنذاك يسكنون منطقة المدينة المنوّرة ، يسألون المصطفى ﷺ ، هكذا في صيغة الزّمن المضارع الذي يفيد تجدّد الفعل واستمراره ، أن ينزّل عليهم كتاباً من السّماء . وعلى الرّغم من الأخطاء التي يرتكبها بنو إسرائيل والتّعنّت الذي يتّسمون به فإنّ القرآن الكريم يومئ إليهم أجمل إيماء وذلك بوصفهم أنّهم أهل الكتاب السّماويّ وهو التّوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام فعليهم أن يقدروا هذه النّعمة حقّ قدرها ، وأن يشكروا لله تعالى عليها ، بأن يترجموا تعاليم الكتاب السّماويّ إلى عمل .

وحينما يسأل بنو إسرائيل المصطفى ﷺ أن ينزّل عليهم كتاباً من السّماء في ذات الوقت الذي تنزل فيه آيات الذّكر الحكيم تباعاً على المصطفى ﷺ النّبيّ الأمّيّ ومنجّمةً بناءً على الظّروف والملابسات ، فذلك معناه أنّهم يريدون الكتاب من السّماء أن ينزل في غير الطّريقة التي ينزل فيها القرآن الكريم فعلاً . ونستطيع أن نفهم أنّهم يريدون من المصطفى ﷺ أن ينزل عليه الكتاب المقترح في ذات الطّريقة التي نزلت فيها التّوراة على موسى عليه السّلام أو الإنجيل على عيسى عليه السّلام ، بمعنى أن ينزل الكتاب جملةً واحدةً وليس منجّماً ، ومكتوباً على الألواح مثلاً وليس مشافهةً ووحياً .

ومن البيّن أن بني إسرائيل متعنّتون ، يتلهّون ويعبثون ، بدليل أنّ الآية يجيء فيها القول : ﴿ فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ﴾ فمع أنّ السّائلين أسلافُهُمْ إلّا أنّهم ينسب إليهم السّؤال بسبب رضا المتأخّرين عن تعنّت المتقدّمين ، وبسبب استعداد الذّرّيّة للقيام بذات العمل الذي قام به الآباء والأجداد . إنّ الكتاب

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٧٢/١ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير الطّبريّ ٨/٦ .

الذي اقترحه على المصطفى ﷺ الذّراري سبق له أن نزل على موسى عليه السّلام وعلى الأسلاف ، فلماذا لا يؤمن به الأسلاف ؟ ولماذا بلغت الجراءة على موسى عليه السّلام بل على الله تعالى للدّرجة التي سألوا معها موسى عليه السّلام أن يريهم الله جهرةً ، أي عياناً . وقد نصّت الآية الكريمة على أنّ الأسلاف ، بسبب طغيانهم وبغيهم ، عتوّهم وعنادهم ، قد أخذتهم الصّاعقة وأحرقتهم بنارها وأماتتهم . إنّ عليك أيّها الرّسول الكريم ألّا تعجب من سؤال الذّراري وتعنّتهم فإنّ لأسلافهم تاريخاً عريقاً في التّعنّت والجراءة على الله تعالى وعلى أنبيائه . وإلى هذه الجراءة وأخذ الصّاعقة لهم وبعث الله تعالى لهم بعد موتهم أشارت الآيتان الكريمتان من سورة البقرة[1] قال تعالى : ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتّى نرى الله جهرةً فأخذتكم الصّاعقة وأنتم تنظرون . ثمّ بعثناكم من بعد موتكم لعلّكم تشكرون ﴾ .

وامتداداً لتعنّت بني إسرائيل المشهورين به اتّخذوا العجل إلهاً يعبدونه من دون الله تعالى ! ومتى عبدوا العجل الذي صاغه لهم السّامريّ من الحليّ ؟ من بعد ما جاءتهم من الله ووصلت إليهم فعلاً آيات الله تعالى البيّنات وحججه القاهرات على يد موسى عليه السّلام . وكما وسعت رحمة الله تعالى بني إسرائيل الذين سألوا موسى عليه السّلام أن يريهم الله تعالى عياناً فبعثهم جلّ وعلا بعد موتهم ، وسعت بني إسرائيل الذين اتّخذوا العجل إلهاً يعبدونه من دون الله تعالى .

وبما أنّ المريض كلّما ازدادت علله واستعصى علاجه كثر أطبّاؤه وتنوّع دواؤه فإنّ بني إسرائيل المجبولين على العناد المفطورين على التّعنّت كانوا بحاجةٍ دائمة إلى الحجج والبراهين ، وإلى ذلك أشارت الجزئيّة الكريمة الأخيرة : ﴿ وآتينا موسى سلطاناً مبيناً ﴾ والسّلطان المبين الآيات البيّنات التي آتاه الله تعالى إيّاها ، والأدلّة الباهرة ، والحجج القاهرة .

---

(١) الآية ٥٥ ، ٥٦ .

وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾

الطّور : طور سيناء ، اسم جبل بقُرْب أَيْلَة[١] كلّم الله عليه موسى عليه السّلام وأنزل عليه فيه التّوراة[٢] .

ورفعنا فوقهم الطّور : وذلك لمّا امتنعوا من العمل بما في التّوراة وقبول ما جاءهم به موسى فيها[٣] رفع الله على رءوسهم جبلاً ، ثمّ ألزموا فالتزموا وسجدوا وجعلوا ينظرون إلى فوق رءوسهم خشية أن يسقط عليهم كما قال تعالى : ﴿ وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنّه ظلّةٌ وظنّوا أنّه واقعٌ بهم خذوا ما آتيناكم بقوّة ﴾ الآية[٤] .

بميثاقهم : بما أعطوا الله الميثاق والعهد لنعملنّ بما في التّوراة[٥] والميثاق عقدٌ مؤكّدٌ بيمينٍ وعهد[٦] .

الباب : باب حطّة ، من أبواب بيت المقدس[٧] .

سجّداً : أمروا أن يدخلوا من الباب سجّداً أي سجوداً[٨] ومنحنين ركوعاً كما قال ابن عبّاس[٩] أي فخالفوا ما أمروا به من القول والفعل فإنّهم أمروا أن يدخلوا باب بيت المقدس سجّداً ، وهم يقولون حطّة ، أي اللّهمّ حطّ عنّا ذنوبنا في تركنا الجهاد ونكولنا عنه حتّى تهنا في التّيه أربعين سنة ، فدخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون : حنطةٌ في

---

(١) معجم البلدان « طور سيناء » .
(٢) تفسير القرطبيّ ٣٧١ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٨/٦ .
(٤) تفسير ابن كثير ٥٧٣/١ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٨/٦ .
(٦) مفردات الرّاغب الأصفهاني ٥١٢ .
(٧) تفسير الطّبريّ ٨/٦ وتفسير القرطبيّ ٣٥٠ .
(٨) تفسير الطّبريّ ٨/٦ .
(٩) تفسير القرطبيّ ٣٥٠ .

شعرة[1] .

وقلنا لهم لا تعدوا في السَّبت : وقلنا لسكّان قرية أَيْلَة على بحر القُلْزُم[2] البحر الأحمر . لا تصطادوا الحيتان يوم السّبت ولا تعتدوا على أحكام الله تعالى[3] .

وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً : أي شديداً ، فخالفوا وعصوا وتحيّلوا على ارتكاب ما حرّم الله عزّ وجلّ ، كما هو مبسوطٌ في سورة الأعراف عند قوله : واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر[4] .

الآية الكريمة امتدادٌ لسابقتها في تبيين تعنّت بني إسرائيل . إنّها تقرّر ابتداءً أنّ الله سبحانه وتعالى رفع فوقهم جبل الطّور بميثاقهم . وإنّما رفع الله سبحانه وتعالى الطّور فوق بني إسرائيل لأنّهم بعد أن أعطوا الميثاق والعهد المؤكّد بأن يعملوا بالتّوراة نكصوا على أعقابهم ورفضوا العمل بتعاليمها ، والعجيب في أمر القوم أنّهم رفضوا العمل بالتّوراة التي تأمر بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له لأنّ قلوبهم أشربت حبّ العجل ، بمعنى أن حبّ العجل وصل من قلوبهم إلى الشّغاف وتغلغل فيها تغلغل الماء القادر على أن ينتهي إلى أعمق الأعماق ، والعجيب في الأمر كذلك أنّ القوم عبدوا العجل في ذات الوقت الذي ذهب فيه موسى عليه السّلام لميقات ربّه وتلقّى التّوراة .

ونستطيع أن نتوصّل إلى معنى الجزئيّة الكريمة : ﴿ ورفعنا فوقهم الطّور بميثاقهم ﴾ بالنّظر إلى هذه الآيات الكريمات . قال تعالى[5] : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيّننّه للنّاس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً ، فبئس ما يشترون ﴾ وقال تعالى[6] : ﴿ وإذ نتقنا الجبل[7] فوقهم كأنّه ظُلّةٌ وظنّوا أنّه واقعٌ بهم خذوا ما آتيناكم بقوّةٍ واذكروا ما فيه لعلّكم تتّقون ﴾ وقال تعالى[8] : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٧٣/١ .

(٢) القُلْزُم بضمّ القاف والزّاي من القلزمة ، بمعنى الابتلاع ، وسمّي البحر بذلك لالتهامه من ركبه ، وقيل قلزم بلدة على ساحل بحر اليمن إليها ينسب هذا البحر. ياقوت .

(٣) انظر مثلاً تفسير الطّبريّ ٨/٦ .

(٤) تفسير ابن كثير ٥٧٣/١ .

(٥) سورة آل عمران ١٨٧ .

(٦) سورة الأعراف ١٧١ .

(٧) رفعنا الجبل من أصله ، بواسطة جبريل عليه السّلام الكشّاف ٢١٩/١ .

(٨) سورة البقرة ٩٣ .

فوقكم الطّور خذوا ما آتيناكم بقوّةٍ واسمعوا . قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم . قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ عن ابن عبّاس : كانوا إذا نظروا إلى الجبل قالوا سمعنا وأطعنا . وإذا نظروا إلى الكتاب قالوا سمعنا وعصينا[1] وقال لهم موسى : إن قبلتم وإلّا ألقي عليكم حتّى قبلوا[2] .

فإذا تحوّلنا إلى الجزئيّة الكريمة التّالية : ﴿ وقلنا لهم ادخلوا الباب سجّداً ﴾ تبيّنّا أنّها امتدادٌ لتعنّت بني إسرائيل وعصيانهم أوامر الله تعالى وجراءتهم على رسله . فبعد أن أزال الله سبحانه وتعالى عن بني إسرائيل غمّة التّيه[3] أباح لهم جلّ وعلا أن يدخلوا القرية . وسواءٌ كانت هذه القرية بيت المقدس أو أريحا أو غيرهما فإنّها في أرض الشّام ، المكان الذي باركه الله تعالى ديناً ودنيا ، وأمروا أن يدخلوا باب القرية منحنين ركوعاً كما قال ابن عبّاس[4] شاكرين لله تعالى متواضعين ، قائلين مسألتنا حطّة ، أي أن تحطّ عنّا ذنوبنا بفضل الله تعالى ومنّه ، ولكنّ بني إسرائيل قالوا وفعلوا غير ما أمروا بقوله وفعله . روى مسلم عن أبي هريرة قال ، قال رسول الله ﷺ : قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجّداً وقولوا حطةٌ يغفر لكم خطاياكم فبدّلوا ، فدخلوا الباب يزحفون على أستاههم وقالوا حبّة في شعْرة ، وأخرجه البخاريّ وقال : فبدّلوا وقالوا : حطّة ، حبّة في شعْرة . في غير الصّحيحين : حنطةٌ في شَعْر[5] وروي أنّ الباب جعل قصيراً ليدخلوه ركّعاً فدخلوه متورّكين على أستاههم . والله أعلم[6] .

فإذا تحوّلنا إلى الجزئيّة الكريمة التّالية : ﴿ وقلنا لهم لا تعدوا في السّبت ﴾ والمراد أهل أيلة على البحر الأحمر الذين نهوا عن اصطياد الحيتان يوم السّبت فاحتالوا لحبسها يوم السّبت واصطادوها بعد ذلك ، تبيّنّا أنّ الآيات الكريمات من سورة الأعراف تبيّن تعنّت القوم أوضح تبيين ، قال تعالى[7] : ﴿ واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ

---

(١) البحر المحيط ٣٠٨/١ .

(٢) الكشّاف ٢١٩/١ .

(٣) تفسير القرطبيّ ٣٤٩ وانظر البحر المحيط ٢٢٠/١ .

(٤) تفسير القرطبيّ ٣٥٠ .

(٥) تفسير القرطبيّ ٣٥٠ .

(٦) تفسير القرطبيّ ٣٥١ .

(٧) سورة الأعراف ١٦٣ ــ ١٦٧ .

يعدون في السَّبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرَّعاً ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون . وإذ قالت أمّةٌ منهم لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذّبهم عذاباً شديداً قالوا معذرةً إلى ربّكم ولعلّهم يتّقون . فلمّا نسوا ما ذكّروا به أنجينا الذين يَنْهَوْن عن السّوء وأخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ بما كانوا يفسقون . فلمّا عتوا عمّا نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردةً خاسئين . وإذ تأذّن ربّك ليبعثنّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب . إنّ ربّك لسريع العقاب وإنّه لغفورٌ رحيم ﴾ .

وهذا القول الذي تختم به الآية الكريمة : ﴿ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴾ في الوقت الذي يقرّر فيه أخذ الموثق الغليظ من القوم والعهد المؤكّد الشّديد بأن يفعلوا ما أمروا به ويجتنبوا ما نهوا عنه ، هو في الوقت ذاته يدلّ على عصيان القوم ونقضهم الميثاق . وإنّ الآية الكريمة التّالية أظهرت ما أضمرت هذه الآية الكريمة من نقض القوم الميثاق ، كما أنّها أضافت الجديد من تعنّت القوم وكفرهم بآيات الله تعالى وارتكابهم ما حرّم الله جلّ وعلا .

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾

وقولهم قلوبنا غلف : جمع أغلف كقولهم : سيفٌ أغلف أي هو في غلاف ، وغلامٌ أغلف كنايةٌ عن الأقلف ، والغُلْفة كالقُلْفة[1] قال ابن عبّاس ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسّدّيّ وقتادة وغير واحد أي في غطاء[2] .

بل طبع الله عليها بكفرهم : بل هي مطبوعٌ عليها بكفرهم[3] والطّبع أن تصوِّر الشّيء بصورةٍ ما كطبع السّكّة وطبع الدّراهم وهو أعمّ من الختم وأخصّ من النّقش . والطّابع والخاتم ما يُطْبَع به ويُخْتَم[4] والختم : التّغطية على الشّيء والاستيثاق منه حتّى لا يدخله شيء . ومنه : ختم الكتاب والباب وما يشبه ذلك حتّى لا يوصل إلى ما فيه ولا

---

(١) مفردات الرّاغب الأصبهاني ٣٦٤ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٧٣/١ .

(٣) تفسير ابن كثير ٥٧٣/١ .

(٤) مفردات الرّاغب الأصبهاني ٣٠١ .

يوضع فيه غير ما فيه[1] وقد استعير الشّيء المحسوس للشّيء المعقول[2] والختم والطّبع يقال على وجهين ، مصدر ختمت وطبعت ، وهو تأثير الشّيء كنقش الخاتم والطّابع . والثّاني الأثر الحاصل عن النّقش[3] والثاني هو المراد .

تقرّر الآية الكريمة مظاهر أخرى من تعنّت بني إسرائيل . وبالنّظر إلى هذه المظاهر والمقارنة بينها وبين ما سبقها ولحق بها من تعنّت يتبيّن توزّع هذه المظاهر خلال العصور المتطاولة على القوم ممّا هو دليلٌ على تأصّل الالتواء فيهم والاعوجاج في سلوكهم . ونستطيع أن نفهم أنّ المتعلّق محذوف وتقديره لعنّاهم وغضبنا عليهم ، والمعنى فبنقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حقّ وقولهم قلوبنا غلفٌ لعنّاهم وغضبنا عليهم وطردناهم من رحمتنا .

أمّا نقضهم الميثاق فبسبب عدم التّمسّك بتعاليم التّوراة ، وأمّا كفرهم بآيات الله تعالى ، فالمراد جحودهم بأدلّة الله تعالى وبراهينه والمعجزات التي أجراها الله تعالى على يد أنبياء الله تعالى وشاهدوها ، بل انتهت بهم الجراءة على أنبياء الله تعالى إلى تجاوز مرحلة تكذيبهم والتّورّط في قتلهم بغير حقّ . إنّ قتل الذين يأمرون بالقسط من النّاس جريمة نكراء فكيف بقتل أنبياء الله تعالى . وهم تجاه آيات الله تعالى البيّنات يزعمون أنّ قلوبهم غلف ، وفي أغطيتها فلا خير يدخلها ولا شرّ يخرج منها .

وتعقيباً على قولهم : ﴿قلوبنا غلف﴾ يجيء قوله تعالى : ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلّا قليلاً ﴾ والمعنى أنّ بني إسرائيل حينما انصرفوا عن دعوة الحقّ صرف الله قلوبهم فلا تصغى لموعظة ولا يستقرّ بها خير . وقد عبّروا عن إعراضهم عن دعوة الحقّ بالقول : ﴿قلوبنا غلف﴾ وعبّرت الآية الكريمة عن زيادة قلوبهم عمىً إلى عماها وهو ما يسمّى بعمى البصيرة بالقول : ﴿ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلّا قليلاً ﴾ إنّ الله سبحانه وتعالى ، وقد سدّ بنوا إسرائيل كلّ المنافذ التي يصحّ أن يتسلّل الخير خلالها إلى قلوبهم ، قد طبع على تلك القلوب وختم على تلك الأفئدة فلا الشّرّ يخرج منها ولا الخير يدخل فيها ولا يؤمنون إلّا قليلاً منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه .

---

(١) تفسير القرطبيّ ١٦١ .

(٢) البحر المحيط ٤٨/١ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصبهاني ١٤٢ .

وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾

وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً : عن ابن عبّاس يعني أنّهم رموها بالزّنا[1] .

من البيّن أنّ صفة الكفر هي الصّفة الغالبة على القوم والقاسم المشترك بينهم ، فقد جاء النّصّ على صفة الكفر مرّتين اثنتين في الآية الكريمة السّابقة . وهذه الآية الكريمة تبدأ بتقرير صفة الكفر ذاتها ، وكرّر الباء في القول : ﴿وبكفرهم﴾ للفصل بينه وبين ما عطف عليه[2] وإنّ الفصل بحرف الجرّ الباء والنّصّ على مريم ابنة عمران مرشّحان للفهم أنّ المراد بالكفر الكفر بعيسى ابن مريم عليه السّلام . إذ المعروف أنّ اليهود يؤمنون بموسى عليه السّلام ويكفرون بكلٍّ من عيسى ومحمّد عليهما الصّلاة والسّلام . والمراد بالبهتان العظيم الذي قالوه على مريم ابنة عمران اتّهامها بجريمة الزّنا : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذباً ﴾[3] وممّا جاء في القرآن الكريم في مريم ابنة عمران العفيفة الطّاهرة الذّيل قوله عزّ من قائل في سورة التّحريم[4] : ﴿ ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدّقت بكلمات ربّها وكتبه وكانت من القانتين ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٩/٦ وتفسير ابن كثير ٥٧٣/١ .

(٢) الجلالين .

(٣) سورة الكهف ٥ .

(٤) الآية ١٢ .

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾

من البيّن أنّ الآية الكريمة التي تبدأ بالقول : ﴿وقولهم﴾ عطفاً على القول ذاته في الآية الكريمة السّابقة : ﴿ وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴾ لا تتضمن حرف الجرّ الباء ، فلا يجيء فيها : وبقولهم ، على غرار القول في الآية الكريمة السّابقة : ﴿وبكفرهم﴾ ونستطيع أن نفهم من عدم مجيء حرف الجرّ الباء أنّ الحديث متّصلٌ بسابقه في الآية الكريمة السّابقة ومعطوفٌ عليه ممّا يعتبر قوّةً للرّأي الذي ذهبنا إليه بكون القول : ﴿وبكفرهم﴾ يعني كفراً جديداً مبيّناً لموقف بني إسرائيل من عيسى عليه السّلام . إنّ بني إسرائيل يقولون متبجّحين : ﴿ إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ وحينما نعلم أنّهم عليهم لعائن الله تعالى يقولون على مريم بهتاناً عظيماً نستطيع أن نفهم روح الهزء والسّخرية التي تسيطر على قولهم : ﴿ إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم ﴾ وحينما نعلم أنّهم يؤمنون بموسى عليه السّلام ويكفرون بعيسى وبمحمّد عليهما الصّلاة والسّلام نستطيع أن نفهم كذلك روح الهزء والسّخرية التي تسيطر على قولهم : ﴿ عيسى ابن مريم رسول الله ﴾ وهذا الموقف يذكّرنا بموقف كفّار مكّة من المصطفى ﷺ كما بيّنته هذه الآية الكريمة من سورة الحجر[1] : ﴿ وقالوا يا أيها الذي نزّل عليه الذّكر إنّك لمجنون ﴾ إنّ هؤلاء المجرمين مستهزئون بالذّكر الحكيم ، وقد كفى الله سبحانه وتعالى المصطفى ﷺ المستهزئين في السّورة ذاتها في قوله تعالى[2] : ﴿ إنّا كفيناك المستهزئين ﴾ .

وتدحض الآية الكريمة الأولى على الفور ادّعاء بني إسرائيل قتلهم عيسى عليه

---

(١) الآية ٦ .

(٢) سورة الحجر ٩٥ .

السّلام : ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم ، وإنّ الذين اختلفوا فيه لفي شكٍّ منه ، ما لهم به من علمٍ إلّا اتّباع الظّنّ وما قتلوه يقينًا ﴾ فلنُصْغ لما يقول السّلف في هذا الأمر : عن ابن عبّاس قال : لمّا أراد الله أن يرفع عيسى إلى السّماء وخرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً من الحواريّين ، يعني فخرج عليهم من عينٍ في البيت ورأسه يقطر ماءً فقال : إنّ منكم من يكفر بي اثنتي عشرة مرّةً بعد أن آمن بي قال : ثمّ قال : أيّكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي ، فقام شابٌّ من أحدثهم سنّاً فقال له اجلس . ثمّ أعاد عليهم فقام ذلك الشّابّ فقال اجلس . ثمّ أعاد عليهم فقام الشّابّ فقال : أنا . فقال : هو أنت ذاك . فألقي عليه شبه عيسى ورفع عيسى من روزنة[1] في البيت إلى السّماء . قال : وجاء الطّلب من اليهود فأخذوا الشّبه فقتلوه ثمّ صلبوه فكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرّةً بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق . فقالت فرقة : كان الله فينا ما شاء ثمّ صعد إلى السّماء وهؤلاء اليعقوبيّة . وقالت فرقة : كان فينا ابن الله ما شاء ثمّ رفعه الله إليه وهؤلاء النّسطوريّة . وقالت فرقة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثمّ رفعه الله إليه وهؤلاء المسلمون . فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها ، فلم يزل الإسلام طامساً حتّى بعث الله محمّداً ﷺ . وهذا إسنادٌ صحيحٌ إلى ابن عبّاس ورواه النّسائيّ[2] .

وبناء على ما سبق يكون المعنى : وما قتل بنو إسرائيل عيسى عليه السّلام وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم ذلك . وإنّ الذين اختلفوا في عيسى عليه السّلام لمّا رأوا الوجه وجه عيسى والجسد ليس جسده لفي شكٍّ منه عليه السّلام أي من قتله ، وقال آخرون بل هو هو . وتقرّر الآية الكريمة أنّ الذين اختلفوا في قتل عيسى عليه السّلام ما لهم بقتله من علمٍ إلّا اتّباع الظّنّ . وإنّ الظّنّ لا يغني من الحقّ شيئاً ، وبعد أن أثبتت الآية الكريمة للمختلفين في قتل عيسى عليه السّلام الشّكّ في قتله نفت عنهم يقين القتل : ﴿ وما قتلوه يقيناً ﴾ والمعنى أنّهم لم يكونوا متيقّنين من قتله .

وتقرّر الآية الكريمة التّالية أنّ الله سبحانه وتعالى قد رفع عيسى عليه السّلام إليه ، وكان الله سبحانه وتعالى عزيزاً في ملكه غالباً على أمره ، حكيماً في صنعه وتدبيره ، نجّى عيسى عليه السّلام بعد أن أحاط به أعداؤه .

---

(١) الرَّوْزنة : الكوّة . القاموس .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ١/٥٧٤ وتفسير الطّبريّ ٦/١٠ ــ ١٣ .

وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

تبيّن الآية الكريمة أنّه ما مِنْ أهل الكتاب أحدٌ إلّا ليؤمننّ بعيسى عليه السّلام قبل موته عليه السّلام لمّا ينزل عليه السّلام قرب السّاعة كما وردت بذلك الأحاديث الصّحاح المتواترة . « إن الله رفع إليه عيسى وهو باعثه قبل يوم القيامة مقاماً يؤمن به البرّ والفاجر »[1] ويصدّقون به إذا نزل لقتل الدّجّال فتصير الملل كلّها واحدة ، وهي ملّة الإسلام الحنيفيّة دين إبراهيم عليه السلام[2] ويوم القيامة يكون عيسى على أهل الكتاب شهيداً يعني شاهداً عليهم بتكذيب من كذّبه منهم وتصديق من صدّقه منهم فيما أتاهم به من عند الله وبإبلاغه رسالة ربّه[3] وبأعمالهم التي شاهدها منهم قبل رفعه إلى السّماء وبعد نزوله إلى الأرض[4] .

وآن لنا الاستئناس بالأحاديث الصّحاح في هذا الشّأن . جاء في تفسير الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[5] : « قال البخاري رحمه الله في كتاب ذكر الأنبياء من صحيحه المتلقّى بالقبول : نزول عيسى ابن مريم عليه السّلام . حدّثنا إسحاق بن إبراهيم حدّثنا يعقوب بن إبراهيم عن أبي صالح عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً فيكسر الصّليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية (يعني لا يقبلها من أحدٍ من أهل الأديان بل لا يقبل إلا الإسلام أو السّيف . تفسير ابن كثير ٥٧٧/١) ويفيض المال حتّى لا يقبله أحد وحتّى تكون السّجدة خيراً له من الدّنيا وما فيها . ثمّ يقول أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم : وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً . وكذا رواه مسلم عن الحسن الحلواني وعبد بن حميد كلاهما عن يعقوب به . وأخرجه

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٧٦/١ .

(٢) تفسير الطّبريّ ١٤/٦ .

(٣) تفسير الطّبريّ ١٧/٦ .

(٤) تفسير ابن كثير ٥٧٧/١ .

(٥) تفسير ابن كثير ٥٧٨/١ .

البخاري ومسلم أيضاً من حديث سفيان بن عيينة عن الزّهريّ به وأخرجاه من طريق اللّيث عن الزّهريّ به .. قال الإمام أحمد حدّثنا عفّان حدّثنا همّام أنبأنا قتادة عن عبد الرّحمن عن أبي هريرة أنّ النّبيّ ﷺ قال : الأنبياء إخوةٌ لعلّات[1] أمّهاتهم شتّى ودينهم واحد ، وإنّي أولى النّاس بعيسى ابن مريم لأنّه لم يكن نبيّ بيني وبينه ، وإنّه نازل ، فإذا رأيتموه فاعرفوه رجلٌ مربوع إلى الحمرة والبياض عليه ثوبان ممصّران[2] كأنّ رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل ، فيدقّ الصّليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويدعو النّاس إلى الإسلام ويهلك الله في زمانه الملل كلّها إلّا الإسلام ويهلك الله في زمانه المسيح الدّجّال ، ثمّ تقع الأمانة على الأرض حتّى ترتع الأسود مع الإبل ، والنّمار مع البقر ، والذّئاب مع الغنم ، ويلعب الصّبيان بالحيّات لا تضرّهم فيمكث أربعين سنة ثمّ يتوفى ويصلّي عليه المسلمون » وبعد أن ذكر ابن كثير الكثير من الأحاديث في هذا الشّأن علّق عليها بقوله[3] : « فهذه أحاديث متواترة عن رسول الله ﷺ من رواية أبي هريرة وابن مسعود وعثمان بن أبي العاص وأبي أمامة والنّواس بن سمعان وعبد الله بن عمرو بن العاص ومجمع بن حارثة وأبي شريحة وحذيفة بن أسيد رضي الله عنهم . وفيها دلالةٌ على صفة نزوله ومكانه من أنّه بالشّام بل بدمشق عند المنارة الشّرقيّة وأنّ ذلك يكون عند إقامة صلاة الصّبح » .

« وروى البخاريّ ومسلم من طريق الزّهريّ عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ليلة أسري بي لقيت موسى . قال : فنعته فإذا رجلٌ قال : أحسبه مضطرب رجل الرّأس كأنّه من رجال شنوءة . قال : ولقيت عيسى . فنعته النّبيّ ﷺ فقال : ربعة أحمر كأنّما خرج من ديماس ، يعني الحمّام . ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به . الحديث . وروى البخاريّ من حديث مجاهد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : رأيت موسى وعيسى وإبراهيم . فأمّا عيسى فأحمر جعد عريض الصّدر وأمّا موسى فآدم جسيم سبط كأنّه من رجال الزّلط .. ولمسلم عنه (عن ابن عمر) مرفوعاً : وأراني الله عند الكعبة في المنام وإذا رجلٌ آدم كأحسن ما ترى من أدم الرّجال تضرب لمّته بين منكبيه رجل الشّعر يقطر رأسه ماءً واضعاً يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت

---

(١) بنو العَلّات بفتح العين بنو أمّهات شتّى من رجل واحد . القاموس .

(٢) ممصّران مصبوغان بالمِصْر بكسر الميم وهو الطّين الأحمر . القاموس .

(٣) تفسير ابن كثير ٥٨٢/١ .

فقلت : من هذا ؟ قالوا هو المسيح ابن مريم .. ثمّ رواه البخاريّ .. عن الزّهريّ عن سالم عن أبيه قال : لا والله ما قال النّبيّ ﷺ لعيسى أحمر ولكن قال : بينما أنا نائم أطوف بالكعبة فإذا رجلٌ آدم سبط الشّعر يتهادى بين رجلين ينطف رأسه ماء — أو — يهراق رأسه ماء ، فقلت من هذا ؟ فقالوا ابن مريم .. وقد تقدّم في حديث عبد الرّحمن بن آدم عن أبي هريرة أنّ عيسى عليه السّلام يمكث في الأرض بعد نزوله أربعين سنةً ثمّ يتوفّى ويصلّي عليه المسلمون . وفي حديث عبد الله بن عمر عند مسلم أنّه يمكث سبع سنين فيحتمل والله أعلم أن يكون المراد بلبثه في الأرض أربعين سنة مجموع إقامته فيها قبل رفعه وبعد نزوله فإنّه رُفِع وله ثلاثٌ وثلاثون سنة في الصّحيح »[1] .

فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّه بسبب ظلم اليهود الذي نصّت عليه الآيات الكريمات السّابقات من نقضهم الميثاق وكفرهم بآيات الله تعالى وقتلهم الأنبياء بغير حقّ وقولهم قلوبنا غلف ، وبكفرهم بعيسى عليه السّلام وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً إلى غير ذلك من مظاهر ظلم اليهود أنفسهم وسواهم حرّم الله سبحانه وتعالى عليهم طيّباتٍ كانت قد أحلّت لهم ، وكذلك بسبب صدّهم النّاس عن سبيل الله تعالى ودينه الحقّ صدًّا كثيراً ، ويلحق بذلك صدّهم النّاس عن دين الإسلام وكفرهم بمحمّد بن عبد الله ﷺ خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين . وقد جاء في سورة الأنعام[2] قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين هادوا حرّمنا كلّ ظُفُر ، ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما إلّا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم . ذلك جزيناهم ببغيهم وإنّا لصادقون ﴾ والمعنى وعلى اليهود حرّمنا كلّ ظفر وهو ما لم تفرّق أصابعه كالإبل والنّعام ، ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما إلّا ما حملت

---

(١) تفسير ابن كثير ٥٨٣/١ .

(٢) الآية ١٤٦ .

ظهورهما وعلق بها من الشحم أو حملته الحوايا وهي الأمعاء أو ما اختلط بعظم منه وهو شحم الألية فإنّه أحلّ لهم[1]

وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

من الأسباب التي جعلت ربّ العزّة يحرّم على بني إسرائيل طيّبات أحلّت لهم ، إضافةً إلى الأسباب السّابقة ، أخذهم الرّبا « وهو أخذهم ما أفضلوا على رءوس أموالهم لفضل تأخيرٍ في الأجل بعد محلّها »[2] ففي مقابل إفساح الأجل للمدين المعسر هم يزيدون على رأس المال ويرفعون الفائدة . إنّ بني إسرائيل يتعاملون بالرّبا الذي نهاهم الله سبحانه وتعالى عنه في التّوراة . ومن الأسباب كذلك أكلهم أموال النّاس بالباطل كالرّشا وكالثّمن الذي يأخذونه مقابل كتمانهم العلم الذي أخذ الله تعالى منهم الموثق على تبيينه وعدم كتمانه ، ومقابل ليّهم ألسنتهم بالكتاب ليُحْسَبَ من الكتاب وما هو من الكتاب الذي أنزله الله تعالى ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ولكنّهم الكذّابون المتعمّدون للكذب . وقد جعل الله سبحانه وتعالى وأعدّ للكافرين منهم عذاباً مهيناً ، أليماً وعظيماً .

ومن الآيات الكريمات التي بيّنت أكل بني إسرائيل أموال النّاس بالباطل قوله تعالى[3] : ﴿ سمّاعون للكذب أكّالون للسُّحت ﴾ أي المال الحرام . وقوله تعالى[4] : ﴿ وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السّحت . لبئس ما كانوا يعملون . لولا ينهاهم الرّبّانيّون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السّحت لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ وقوله تعالى[5] : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيّننّه للنّاس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ﴾ .

إنّ من أسباب غضب الله سبحانه وتعالى على اليهود أخذهم الرّبا وقد نهوا عنه . وإنّ

---

(١) انظر الجلالين .

(٢) تفسير الطّبريّ ٦/١٧ .

(٣) سورة المائدة ٤٢ .

(٤) سورة المائدة ٦٢ ، ٦٣ .

(٥) سورة آل عمران ١٨٧ .

في هذا درساً بليغاً للمسلمين الذين تورّطوا في الرّبا ، الذّنب الوحيد الذي أعلن ربّ العزة في القرآن المجيد وأعلن رسوله الكريم الحرب على المتعامل به . نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلهم المسلمين رشدهم فيكفّوا عن التّعامل بالرّبا الذي هو في الحقيقة حربٌ على الله تعالى وعلى رسوله الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

لَٰكِنِ
ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ
أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

تستثني الآية الكريمة من العذاب المهين الذي أعدّه الله سبحانه وتعالى لكافري أهل الكتاب ، تستثني الرّاسخين في العلم الذين لهم قدمٌ راسخةٌ في العلم الصّحيح كما تستثني المؤمنين منهم الذين آمنوا بالله تعالى ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمّد بن عبد الله ﷺ نبيّاً ورسولاً ، إنّ هذين الفريقين المستثنين من العذاب الأليم بسبب العلم الصّحيح الذي خصّوا به والإيمان العميق الذي تحلّوا به يؤمنون بما أنزل إلى محمّد بن عبد الله ﷺ من قرآنٍ مجيد ، كما يؤمنون بما أنزل إلى النّبيّين السّابقين من ربّهم وبخاصّةٍ التّوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السّلام والإنجيل الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السّلام .

وهؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب الذين دخلوا في حظيرة الإسلام يطبّقون تعاليم الإسلام بعد أن أصبحوا جزءاً لا يتجزّأ من خير أمّةٍ أخرجت للنّاس ، وفي مقدّمة هذه التّعاليم أهمّ أركان الإسلام بعد الشّهادتين أعني إقام الصّلاة . ودليلاً على أهمّيّة الصّلاة تأتي الإشارة إليها وحدها منصوبةً على المدح : ﴿والمقيمين الصّلاة﴾ والمعنى أنّ هؤلاء المقيمين الصّلاة أهلٌ لأن يمدحوا وأن يخصّوا بالثّناء . وجريّاً على عادة القرآن الكريم في الجمع بين الصّلاة والزّكاة لأهمّيّتهما فيما يزيد على الثمانين موضعاً يوصف أولئك المؤمنون بأنّهم يؤتون الزّكاة : ﴿والمؤتون الزّكاة﴾ كما تنصّ الآية الكريمة على إيمان هؤلاء المؤمنين بالله واليوم الآخر ﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ إنّ الإيمان بالله تعالى هو الأوّل وإنّ الإيمان

باليوم الآخر هو الآخر ، ويقترن بالإيمان بالله الإيمان برسوله ﷺ ، وفي ذكر الصّلاة والزّكاة ذكرٌ ضمنيّ لبقيّة أركان الإسلام ، وفي ذكر الإيمان بالله واليوم الآخر ذكرٌ ضمنيّ للإيمان بكلّ ما ينبغي الإيمان به بينهما لأنّ الإيمان بالله تعالى يعني طاعته جلّ وعلا في كلّ أوامره ونواهيه ، ولأنّ الإيمان باليوم الآخر يعني الاستعداد لذلك اليوم المجموع له النّاس المشهود .

وبهذا يتبيّن المستوى الرّفيع من الإيمان الذي انتهى إليه مؤمنو أهل الكتاب وقد تحوّلوا مسلمين لله ربّ العالمين كما يتبيّن ما ينبغي على من دخل في الإسلام أن يتحلّى به من صفات كي يكون أهلاً للأجر العظيم الذي نصّت عليه الآية الكريمة في نهايتها : ﴿ أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً ﴾ .

وإنّ هذه الصّفات الحميدة التي تحلّى بها الدّاخلون في الإسلام من أهل الكتاب تذكّرنا بالآيات الكريمات في المعنى ذاته في سورة القصص[1] : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذ يتلى عليهم قالوا آمنّا به إنّه الحقّ من ربّنا إنّا كنّا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا ويدرأون بالحسنة السّيّئة وممّا رزقناهم ينفقون . وإذا سمعوا اللّغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلامٌ عليكم لا نبتغي الجاهلين . إنّك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ .

---

(١) الآيات ٥٢ ــ ٥٦ .

أوحينا إليك بالنبوّة وأنزلنا إليك القرآن
وعقاب الكافرين

الآيات ١٦٣ - ١٧٠

﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾

إنّ أوّل ما يلفت الانتباه بشأن أسماء الموحى إليهم من النّبيّين في الآيتين الكريمتين هو أنّ هذه الأسماء تتضمّن أولى العزم من الرّسل موزّعين في أثنائهما وهم نوحٌ وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّدٌ ﷺ أجمعين ، فما الّذي يلفت الانتباه ممّا يعتبر فضلاً من الله تعالى خصّ به محمّد بن عبدالله ﷺ خاتمهم وأشرفهم ؟ الّذي يلفت الانتباه هو أنّ الآية الكريمة الأولى تبدأ بالنّص على الإيحاء إلى محمد بن عبدالله ﷺ مع كونهم عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين يتقدّمونه ﷺ زمناً ولكنّه يتقدّمهم ذكراً وتنويهاً : ﴿ إنّا أوحينا إليك ﴾ والحقيقة أنّ التّقديم في الذّكر لخاتم النّبيين يذكرنا بمثل هذه الآية الكريمة التي تتضمن أولى العزم من الرّسل وتبدأ بذكر خاتمهم وأشرفهم قال تعالى[1] : ﴿ وإذا أخذنا من النّبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقاً غليظا ﴾ .

وبالنّظر إلى ما تضمّنته الآية الكريمة الأولى من أولى العزم من الرّسل يتبين أنّهم مرتبون تأريخياً ، نوح وإبراهيم وعيسى عليهم الصّلاة والسّلام أما موسى عليه السّلام فقد نصّت عليه الآية الكريمة التّالية والمعروف أنّه يتقدّم في الزّمن عيسى عليهما صلوات الله وسلامه .

إنّ السّياق بعد أن يخاطب محمّد بن عبدالله ﷺ بالقول : ﴿ إنّا أوحينا إليك ﴾

---

(١) سورة الأحزاب ٧ .

يذكر نوحاً عليه السّلام والنّبيّن من بعده ، وبذلك يدخل في ﴿النّبيّن﴾ كلّ النّبيّين بعد نوح عليه السّلام ، وفيهم أولو العزم من الرّسل لأنّ نوحاً عليه السّلام أوّل أولى العزم من الرّسل ونميل إلى الاعتقاد بكونه عليه السّلام أوّل النّبيّين على الإطلاق .

وحينما تحوّل السّياق إلى إبراهيم عليه السّلام كان في ذلك التّنبيه إلى كونه عليه السّلام هو الّذي يلي نوحاً عليه السّلام من بين أولى العزم من الرّسل : ﴿ وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ﴾ والمعنى : وكما أوحينا إلى إبراهيم أبى الأنبياء وابنه الأكبر إسماعيل الّذي من ذريته محمّد بن عبدالله خاتم الأنبياء والمرسلين ، وهو النّبيّ الوحيد من ذرّية إسماعيل عليه السّلام ، وكما أوحينا إلى ابن إبراهيم الأصغر إسحاق ، وإلى يعقوب بن إسحاق ، وإلى الأسباط « ولد يعقوب عليه السّلام اثنا عشر ولداً ، ولد لكلّ واحدٍ منهم أمّةٌ واحدهم سبط »[1] والسِّبْط : الجماعة والقبيلة الرّاجعون إلى أصلٍ واحد[2] والسبط في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل . وسمّوا الأسباط من السّبط (بحركتين) وهو التّتابع ، فهم جماعة متتابعون[3] ومن البيّن أنّ الحديث بعد إبراهيم عليه السّلام كان عن ذرّيته المباشرة وهذه هي الحكمة من ذكرهم ومن سردهم وفق هذا النسق في هذا الموضع من القرآن الكريم وفي غير هذا الموضع كالآية الكريمة السّادسة والعشرين بعد المائة من سورة البقرة وكالآية الكريمة الرّابعة والثّمانين من سورة آل عمران .

ثمّ يذكر السّياق عيسى عليه السلام السّابق مباشرةً على محمّد بن عبدالله ﷺ زمناً ، وآخر أولى العزم الّذين أشارت إليهم هذه الآية الكريمة الأولى .

وبالنّظر إلى أسماء النّبيّين في الآية بعد ذلك : ﴿ وعيسى وأيّوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ﴾ يلفت انتباهنا ابتداءً ذكر هارون عليه السّلام أخى موسى عليه السّلام أحد أولى العزم من الرّسل ، وفي ذكر هارون تنبيهٌ على موسى وترشيحٌ لذكر اسمه الّذي تمّ في الآية الكريمة التّالية ، إذ المعروف أنّ موسى وهارون عليهما السّلام متلازمان في النفس وفي الذّكر ويكفي أن نستذكر بهذه المناسبة هذه الآية الكريمة التي تتحدث عن

---

(١) تفسير القرطبيّ ٥٢٥ .

(٢) تفسير القرطبيّ ٥٢٦ .

(٣) تفسير القرطبيّ ٥٢٥ .

موسى عليه السّلام في سورة مريم[1] : ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً ﴾ إنّ ربّ العزّة أرسل هارون عليه السّلام رسولاً إكراماً لموسى عليه السّلام .

وإنّ أيّوب عليه السّلام يعتبر الصّبر أبرز نعوته عليه السّلام وقد قال تعالى[2] : ﴿ إنّا وجدناه صابراً نعم العبد إنّه أوّاب ﴾ وإنّ يونس عليه السّلام ، يعتبر قومه القرية الوحيدة التي نفعها إيمانها عند رؤية أمارة العذاب وطلائعه ، وقد قال تعالى[3] : ﴿ فلولا كانت قريةٌ آمنت فنفعها إيمانها إلاّ قوم يونس ، لمّا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدّنيا ومتعناهم إلى حين ﴾ .

أمّا سليمان عليه السّلام فإنّه ابن داود عليه السّلام . وإذا كانت الآية الكريمة قد نصّت في نهايتها على إيتاء الله سبحانه وتعالى داود عليه السّلام الزّبور وإيحائه جلّ وعلا إليه من السّماء هذا الكتاب فإنّ كلاً من سليمان وداود عليهما السّلام قد آتاهما الله تعالى علماً منه وفضلا . قال تعالى[4] : ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالا الحمدُ لله الّذي فضّلنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين ﴾ وقال تعالى[5] : ﴿ ولقد آتينا داود منّا فضلا ﴾ وقال تعالى[6] : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نَفَشت[7] فيه غنم القوم وكنّا لحكمهم شاهدين . ففهّمناها سليمان وكلاً آتينا حُكماً وعلما ﴾ .

وإنّ القول في صدر الآية الكريمة : ﴿ إنّا أوحينا إليك ﴾ يعني الإيحاء بالنّبوّة وبالكتاب السّماويّ ، وإنّ في النّصّ على زبور داود عليه السّلام تحقيقاً لجانب الوحي المتمثل في الكتاب السّماويّ بعد أن اتجه أكثر حديث الآية الكريمة الى الوحي بالنّبوّة .

فإذا تحوّلنا إلى الآية الكريمة التّالية تبيّنّا أنّها في القول : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك ﴾ تشير إلى بقيّة رسل الله تعالى وأنبيائه الّذين قصّهم الله تعالى على رسوله في القرآن الكريم ومن ذلك هاتان الآيتان الكريمتان والّذين لم

---

(١) الآية ٥٣ .

(٢) سورة ص ٤٤ .

(٣) سورة يونس ٩٨ .

(٤) سورة النّمل ١٥ .

(٥) سورة سبأ ١٠ .

(٦) سورة الأنبياء ٧٨ ، ٧٩ .

(٧) نفشت : رعته ليلاً بلا راعٍ بأن انفلتت .

يقصصهم عليه جلّ وعلا : « وهذه تسمية الأنبياء الّذين نصّ الله على أسمائهم في القرآن وهم آدم وإدريس ونوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وأيّوب وشعيب وموسى وهارون ويونس وداود وسليمان وإلياس واليسع وزكريّا ويحيى وعيسى وكذا ذو الكفل عند كثيرٍ من المفسّرين وسيّدهم محمّد ﷺ »[1] .

والآية الكريمة في خاتمتها : ﴿ وكلّم الله موسى تكليما ﴾ تنصّ على موسى عليه السّلام باعتباره خاتم أولى العزم من الرّسل في هذا السّياق ، كما أنّ الخاتمة هنا تسير على غرار الخاتمة في الآية الكريمة السّابقة : ﴿ وآتينا داود زبورا ﴾ وذلك في النّصّ على ما خصّ الله سبحانه وتعالى به موسى عليه السّلام حينما كلّمه الله تعالى بلا واسطة[2] وهذا تشريفٌ لموسى عليه السّلام بهذه الصّفة ولهذا يقال له الكليم[3] ونتذكّر بهذه المناسبة الآية الكريمة من سورة الشّورة الّتي تشير ضمناً إلى موسى عليه السّلام الّذي كلّمه الله تعالى من وراء حجاب بأن يسمعه ولا يراه . قال تعالى[4] : ﴿ وما كان لبشرٍ أن يكلّمه الله إلاّ وحياً أو من وراء حجابٍ أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه مايشاء إنّه عليٌّ حكيم ﴾ .

وبهذا يتبين أنّ الآيتين الكريمتين قد شملتا كلّ أنبياء الله تعالى ورسله ، كما شملتا ، على جهة الخصوص ، أولى العزم من الرّسل الخمسة ، ومع أنّ محمّد بن عبدالله ﷺ خاتمهم فقد ابتدأ الحديث عنه تنبيهاً على فضله ﷺ ورفعاً لذكره .

رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٦٥﴾

تبدأ الآية الكريمة بالقول : ﴿ رُسُلا ﴾ على البدليّة ممّا بدأت به الآية الكريمة السّابقة : ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك ﴾ والمعنى أنّ الرّسل الّذين قصّهم الله تعالى

---

(١) تفسير ابن كثير ١ /٥٨٥ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير ابن كثير ١ /٥٨٧ .

(٤) سورة الشورى ٥١ .

على المصطفى ﷺ في الكتاب العزيز والرّسل الذين لم يقصصهم عليه ، قد أرسلهم الله تعالى مبشّرين من أطاعوا الله تعالى وصدّقوا رسله بالجنّة والمغفرة بإذنه ، ومنذرين من عصوا الله تعالى وكذّبوا رسله بالنّار والعذاب والأليم . وإنّما أرسل الله سبحانه وتعالى رسله لئلاّ يكون للنّاس على الله حجّةٌ بعد الرّسل ولئلاّ يجيء على ألسنة الخلائق مانصّت عليه سورة القصص[1] في قوله تعالى : ﴿ ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ﴾ وما نصّت عليه سورة طه[2] في قوله تعالى : ﴿ ربّنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتّبع آياتك من قبل أن نذلّ ونخزى ﴾ وقد قال عزّ من قائل[3] : ﴿ وما كنّا معذّبين حتى نبعث رسولا ﴾ .

وتقرّر الآية الكريمة في تذييلها : ﴿ وكان الله عزيزاً حكيما ﴾ أنّ الله سبحانه وتعالى عزيزٌ في ملكه فلا يعجزه جلّ وعلا شيءٌ ومن ذلك تعذيب الكافرين ، حكيمٌ في صنعه يغفر لمن يشاء ويعذّب من يشاء ولايُسْأل جلّ وعلا عمّا يفعل وهم يُسْألون .

ثبت في الصّحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحبّ إليه المدح من الله عزّ وجلّ ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحبّ إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث النّبيين مبشّرين ومنذرين . وفي لفظ آخر : من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه[4] .

لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾

سبب النزول :

عن ابن عباس قال : دخل على رسول الله ﷺ جماعةٌ من يهود فقال لهم : إنّي والله أعلم أنّكم لتعلمون أنّي رسول الله فقالوا : ما نعلم ذلك فأنزل الله : لكن الله يشهد

---

(١) الآية ٤٧ .

(٢) الآية ١٢٤ .

(٣) سورة الإسراء ١٥ .

(٤) تفسير ابن كثير ١ /٥٨٨ .